ذلك أن لوطاً علم أن قومه سيطمعون فى هؤلاء المُرْد[١] ، لذلك ما أنْ جاءوه حتى أعلن لهم أنه غَيْر مرغوب فيهم ؛ ولم يرحب بهم ، ذلك أنهم قد دخلوا عليه فى صورة شبان تضىء ملامحهم بالحُسْن الشديد ؛ مما قد يُسبِّب غواية لقومه .

كما أنهم قد دخلوا عليه ، وليس على ملامحهم أىّ أثر للسفر ؛ كما أنهم ليسوا من أهل المنطقة التى يعيش فيها ؛ لذلك أنكرهم .

ويقول سبحانه ما جاء على لسان الملائكة لحظةَ أنْ طمانوا لوطاً كشفوا له عن مهمتهم :

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ[٢] ﴿٦٣﴾ ﴾

وهكذا أعلنوا للوط سبب قدومهم إليه ؛ كى يُنزِلوا العقابَ بالقوم الذين أرهقوه ، وكانوا يشكُّون فى قدرة الحق سبحانه أنْ يأخذهم أَخْذَ عزيز مُقْتدر ، وفى هذا تَسْرية عنه .

ثم يُؤكِّدون ذلك بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

أى : جِئْنا لك بأمر عذابهم الصادر من الحقِّ سبحانه ؛ فلا مجالَ للشكِّ أو الامتراء ، ونحن صادقون فيما نُبلِّغك به .

---

(١) غلام أمرد . والمرْد : التمليس . وقال ابن الأعرابى : المرَد : نقاء الخدَّيْن من الشعر ونقاء الغصن من الورق . والأمرد : الشاب الذى بلغ خروج لحيته وطرّ شاربه ولم تبد لحيته . [لسان العرب ـ مادة : مرد] .

(٢) امترى فى الشىء : شكّ فيه ولم يستيقن . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه . والمرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢/٢٢٤] .

ويقولون له من بعد ذلك :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أى : سرْ أنت وأهلك فى جزء من الليل . ومرة يُقَال « سرى » ، ومرة يُقَال « أسرى » ؛ ويلتقيان فى المعنى . ولكن « أسرى » تأتى فى موقع آخر من القرآن ، وتكون مُتعدِّية مثل قول الحق :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

وقولهم هنا (أسر بأهلك[1]) هو تعبير مُهذّب عن صُحْبة النساء والأبناء . ونجد فى ريفنا المصرى مَنْ لا يتكلم أبداً فى حديثه عن المرأة أو البنات ؛ فيقول الواحد منهم « قال الأولاد كذا » ، فكأن اسم المرأة مبنىٌّ على السَّتْر دائماً ، وكذلك نجد كثيراً من الأحكام تكون المرأة مَطْمورة فى حكم الرجل إلا فى الأمر المُتعلِّق بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحجر]

وكلمة « قطع » هى اسم جمع[2] ، والمقصود هو أن يخرج لوطٌ

---

(١) الأهل هم الذين اتبعوا لوطاً فى منهج الله ، ويخرج من الأهلية امرأته لعصيانها كما نُفيت الأهلية عن ابن نوح بعصيانه . قال الله تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

(٢) اسم الجمع هو اسم يدل على الجمع ، ولكنه ليس جمعاً سالماً سلمت فيه بنية المفرد من التغيير ، وليس جمع تكسير ، تغيرت فيه بنية المفرد ، ويفرق بينه وبين مفرده بالتاء ، مثل (تمر) فهذا اسم جمع مفرده (تمرة) ، و (عنب) مفرده (عنبة) ، كذلك قطع هنا اسم يدل على الجمع مفرده (قطعة) ، وليس من أنواع الجموع المعروفة .

بأهله فى جُزْء من الليل ، أو من آخر الليل ، فهذا هو منهج الإنجاء الذى أخبر به الملائكة لوطاً ، ليتبعه هو وأهله والمؤمنون به ، وأوصوْه أن يتبعَ أدبار قومه بقولهم :

﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ .. (٦٥) ﴾ [الحجر]

أى : أن يكون فى المُؤخَّرة ، وفى ذلك حَثٌّ لهم على السُّرعة .

وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا فى مكان ويرحلون منه ؛ فكل منهم يحمل رَحْلَه على ناقته ؛ وأهله فيها ـ فوق الناقة ـ ويبتدئون السير ، ويتخلف رئيس القوم ، واسمه « مُعقِّب » كى يرقُب إنْ كان أحد من القوم قد تخلَّف أو تعثَّر أو ترك شيئاً من متاعه ، ويُسمُّون هذا الشخص « مُعقِّب » .

وهنا تأمر الملائكة لوطاً أن يكون مُعقِّباً لأهله والمؤمنين به ؛ لِيحثَّهم على السير بسرعة ؛ ثم لِينفذ أمراً آخرَ يأمره به الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ .. (٦٥) ﴾ [الحجر]

وتنفيذ الأمر بعدم الالتفات يقتضى أن يكون لوط فى مُؤخَّرة القوم ؛ ذلك أن الالتفاتَ يأخذ وَقْتاً ، ويُقلِّل من سرعة مَنْ يلتفت ؛ كما أن الالتفاتَ إلى موقع انتمائهم من الأرض قد يُثير الحنين إلى مواقع التَّذكار وأرض المَنْشأ ، وكل ذلك قد يُعطِّل حركة القوم جميعهم ؛ لذلك جاء الأمر الإلهى :

﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) ﴾ [الحجر]

أو : أن الحق سبحانه يريد ألاَّ يلتفت أحدٌ خَلْفه حتى لا يشهدَ العذاب ، أو مقدمة العذاب الذى يقع على القوم ، فتأخذه بهم شفقة .

ونحن نعلم قول الحق سبحانه فى إقامة أىٍّ حدٍّ من الحدود التى أنزلها :

﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ..(٢)﴾ [النور]

فلو أن أحداً قد التفتَ إلى العذاب ، أو مُقدِّمة العذاب ؛ فقد يحنَّ إليهم ، أو يعطف عليهم رغم أن عذابهم بسبب ذنب كبير ، فقد ارتكبوا جريمة كبيرة ؛ ونعلم أن بشاعة الجريمة تبهت ؛ وقد يبقى فى النفس عِظَم ألَمِ العقوبة لحظةَ توقيعِها على المُجرم .

أو : أن الحق سبحانه يريد أن يعجل بالقوم الناجين قبل أنْ يوجد ، ولو التفزيع الذى هو مقدمة تعذيب القوم الذين كفروا من هَوْل هذا العذاب القادم .

وهكذا كان الأمر بالإسراء بالقوم الذين قرر الحق سبحانه نجاتهم ، والكيفية هى أن يكون الخروجُ فى جزء من الليل ، وأنْ يتبعَ لوطٌ أدبارهم ، وألاَّ يلتفتَ أحد من الناجين خَلْفه ؛ ليمضى هؤلاء الناجون حيث يأمرهم الحق سبحانه . وقيل : إن الجهة هى الشام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ[1] هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

---

(١) دابر الشىء : آخره . وقطع الله دابرهم أى آخر من بقى منهم . [لسان العرب ـ مادة : دبر] والتعبير كناية عن استئصالهم وإهلاكهم عن آخرهم . فالدابر التابع ، وقطع التابع قطْع لهم جميعاً . [القاموس القويم ١/ ٢٢٠] .

وقوله الحق : ﴿وَقَضَيْنَا..(٦٦)﴾ [الحجر]

أى : أوحينا . وسبحانه تكلَّم من قَبْل عن الإنجاء للمؤمنين من آل لوط ؛ ثم تكلَّم عن عذاب الكافرين المنحرفين ؛ والأمر الذى قضى به الحق سبحانه أنْ يُبيدَ هؤلاء المنحرفين . وقَطْع الدَّابر هو الخَلْع من الجذور .

ولذلك يقول القرآن :

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا..(٤٥)﴾ [الأنعام]

وهكذا نفهم أن قَطْع الدابر هو أنْ يأخذهم الحق سبحانه أَخْذ عزيز مقتدر فلا يُبقِى منهم أحداً . وموعد ذلك هو الصباح ، فبعد أنْ خرج لوط ومَنْ معه بجزء من الليل وتمَّتْ نجاتهم يأتى الأمر بإهلاك المنحرفين فى الصباح .

والأَخْذ بالصُّبح هو مبدأ من مبادىء الحروب ؛ ويُقال : إن أغلب الحروب تبدأ عند أول خيط من خيوط الشمس .

والحق سبحانه يقول :

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ[1] فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧)﴾ [الصافات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يأخذهم وهُمْ فى استرخاء ؛ ولا يملكون قُدْرة على المقاومة .

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

---

(١) الساحة : الناحية والفضاء بين الدُّور . جمعها : سَاحٍ وسُوح وساحات . [القاموس القويم ١/ ٣٣٤] .

﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦)﴾ [الحجر]

لا يتناقض مع قوله عنهم فى موقع آخر :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ[1] (٧٣)﴾ [الحجر]

فكان بَدْء الصيحة كان صُبْحاً ، ونهايتهم كانت فى الشروق . وهكذا رسم الحق سبحانه الصورة واضحة أمام لُوط من قبل أنْ يبدأ التنفيذ ؛ فهكذا أخبرتْ الملائكة لوطاً بما سوف يجرى .

ويعود الحق سبحانه بعد ذلك إلى قوم لوط الذين لا يعرفون ما سوف يحدث لهم ، فيقول سبحانه :

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)﴾

وعندما علم أهل المدينة من قوم لُوط بوصول وَفْد من الشبان الحسَان المُرْد عند لوط جاءوا مُستبشرين فَرحين . وكان حُسْنهم مضربَ الأمثال ؛ وكان كُلاً منهم ينطبق عليه قَوْله الحق عن يوسف عليه السلام :

﴿مَا هَـٰذَا بَشَراً إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف]

وقوله سبحانه :

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)﴾ [الحجر]

---

(١) مشرقين : وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس : أى : أضاءت . وأشرق القوم : أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٦٥] .

يجمع لقطات مُركّبة عن الأمر الفاحش الشائع فيما بينهم ، وكانوا يستبشرون بفعله ويفْرحون به ؛ فهم مَنْ ينطبق عليهم قوله الحق :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ[1] عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾

[المائدة]

وكان لوط يعلم هذا الأمر فيهم ، ويعلم ما سوف يَحيق بهم ؛ وأراد أنْ يجعلَ بينهم وبين فعْل الفاحشة مع الملائكة سدّاً ؛ فهم في ضيافته وفي جواره ، والتقاليد تقضي أنْ يأخذَ الضيف كرامة المُضيف ، وأيّ إهانة تلحق بالضيف هي إهانة للمُضيف ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان لوط :

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) ﴾

والفضيحة هي هَتْك المساتير التي يستحيي منها الإنسان ، فالإنسان قد يفعل أشياءَ يستحي أنْ يعلمها عنه غيره . والحق - سبحانه وتعالى - حين يطلب منا أن نتخلّق بخُلُقه ؛ جعل من كُلٍّ صفات الجمال والجلال نصيباً يعطيه لخَلْقه .

ولكن هناك بعضاً من صفاته يذكرها ولا يأتي بمقابل لها ؛ فهو قد قال مثلاً « الضّارّ » ومقابلها « النافع » . وقال « الباسط » ومقابلها « القابض » وقال « المُعِزّ » ومقابلها « المُذلّ » . ومن

---

(١) تناهوا عن الأمر وعن المنكر : نهى بعضهم بعضاً . فكان بنو إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر فعلوه ، فاستحقوا اللعنة . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠] .

أسمائه « الستار »[1] ولم يَأتِ بالمقابل وهو « الفاضح » ؛ لماذا لم يَأتِ بهذا المقابل ؟

لأنه سبحانه شاء أنْ يحميَ الكون ؛ لكى يستمتع كُلّ فَرْد بحسنات المُسىء ؛ لأنك لو علمتَ سيئاته قد تبصُق عليه ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يستر المُسىء ، ويُظهِر حسناته فقط .

وقد قال لوط لقومه بعد أن نهاهم عن الاقتراب الشائن من ضيوفه :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ (٦٩) ﴾

أى : ضَعُوا بينكم وبين عقاب الحق لكم وقاية ؛ ولا تكونوا سبباً فى إحساسى بالخِزى والعار أمام ضيوفى بسبب مَا ترغبُون فيه من الفاحشة .

والاتقاء من الوقاية ، والوقاية هى الاحتراس والبعد من الشر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ (٦) ﴾ [التحريم]

أى : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، واحترسوا من أن تقعوا فيها ، بالابتعاد عن المحظورات ، فإن فِعْل المحذور طريق إلى النار ،

(١) قال القرطبى فى « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » (١/١٦٧) : « من أسماء الله الستار والساتر . هذان الاسمان لم أر من ذكرهما ، ولا من جعلهما فى عداد الأسماء ، إلا أن الفعل منهما وارد فى غير ما حديث ، منها حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : « من ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة » خرجه مسلم » .

والابتعاد عنه وقاية منها ، ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم - والقرآن كله كلام الله .

يقول : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ..(١٩٤) ﴾ [البقرة]

ويقول : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ..(١٣١) ﴾ [آل عمران]

كيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التى سيعذب فيها الكافرون ؟

والمعنى : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذَّبوا فى النار ، فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصى ، وإن فعلتَ المأمورات ، ورضيتَ بالمقدورات ، وابتعدت عن المحذورات ، فقد اتقيت الله .

ولكنهم لم يستجيبوا له ، بدليل أنهم تَمادَوْا فى غيِّهم وقالوا ما أورده الحق سبحانه :

﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ ﴾

أى : أَلَمْ نُحذِّرك من قَبْل من ضيافة الشبان الذين يتميَّزون بالحُسْن ، ولأنك قُمْتَ باستضافة هؤلاء الشباب ؛ فلا بُد لنا من أنْ نفعلَ معهم ما نحب من الفاحشة ، وكانوا يتعرَّضون لكل غريب بالسوء .

وحاول لوط أن ينهاهم قَدْر استطاعته ؛ ولكنهم رفضوا أنْ يُجير ضيوفه من عدوانهم الفاحش ، وطلبوا منه أن يتركهم وشأنهم ، ليفسدوا فى الكون كما يشاءون ، فلا تتكلم ولا تعترض على شىء مما نفعل ، وهذه لغة أهل الضلال والفساد .

وحاول لوط عليه السلام أنْ يُثنيهم عن ذلك بأن قال لهم ، ما جاء به الحق سبحانه :

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾

أى : أنكم إنْ كُنتم مُصرِّين على ارتكاب الفاحشة ؛ فلماذا لا تتزوجون من بناتى ؟ ولقد حاول البعضُ أن يقولوا : إنه عرض بناته عليهم ليرتكبوا معهنَّ الفاحشة ؛ وحاشا لله أن يصدر مثل هذا الفعل عن رسول ، بل هو قد عرض عليهم أن يتزوجوا النساء .

ثم إن لوطاً كانت له ابنتان اثنتان ، وهو قد قال :

﴿هَٰؤُلاءِ بَنَاتِي.. ٧١﴾ [الحجر]

أى : أنه تحدث عن جمع كثير ؛ ذلك أن ابنتيه لا تصلحان إلا للزواج من اثنين من هذا الجمع الكثيف من رجال تلك المدينة ، ونعلم أن بنات كل القوم الذين يوجد فيهم رسول يُعتبرْنَ من بناته[1] .

ولذلك يقول الحق سبحانه ما يُوضِّح ذلك فى آية أخرى :

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشعراء]

أى : أن لوطاً أراد أنْ يردَّ هؤلاء الشواذ إلى دائرة الصواب ، والفعل الطيب . وذيَّل كلامه :

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلاءِ بَنَاتِي .. ٧٨ ﴾ [هود] قال : ما عرض لوط عليه السلام بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً إنما قال : هؤلاء بناتى نساؤكم ، لأن النبى إذا كان بين ظهرى قوم فهو أبوهم . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤/٤٥٧] .

﴿إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١)﴾ [الحجر]

ليوحى لهم بالشكّ فى أنهم سيُهينون ضيوفه بهذا الأسلوب المَمْجوج والمرفوض .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ(١) يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . و « عَمْرُك » معناها السنُّ المُحدَّد للإنسان لاستقامة الحياة ، ومرة تنطق « عُمُرك » ومرة تنطق « عَمْرك » ، ولكنهم فى القَسَم يختارون كلمة « عَمْرك » ، وهذا يماثل قولنا فى الحياة اليومية « وحياتك » .

ومن هذا القول الكريم الذى يُحدِّث به الحق سبحانه رسوله استدلَّ أهل الإشراق والمعرفة أن الحق سبحانه قد كرَّم سيدنا رسول الله ﷺ ؛ بأنه حين ناداه لم يُنَاده باسمه العلَنىّ « يا محمد » أو « يا أحمد » كما نادى كل رُسُله ، ولكنه لم يُنَادِ الرسول ﷺ إلا بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ..(٦٧)﴾ [المائدة]

أو : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ ..(١٢)﴾ [الممتحنة]

وفى هذا تكريمٌ عظيم ، وهنا فى هذه الآية نجد تكريماً آخر ، فسبحانه يُقسِم بحياة رسوله ﷺ . ونعلم أن الحق سبحانه يُقسِم

---

(١) السكرة : الغشية . أى كانوا فى غشية شهواتهم على عقولهم وغفلتهم واغترارهم بالدنيا اغتراراً يُضلهم فيعمون عن الحق . [القاموس القويم ١/ ٣٢٠] والعمه : التحيُّر والتردد ، أى : يتردد متحيراً لا يهتدى لطريقه ومذهبه . [لسان العرب ـ مادة : عمه] .

بما شاء على مـا شاء ، أقسم بالشمس وبمـواقع النجوم وبالنجم إذا هَوَى .

فهـو الخالق العليم بكل مـا خلق ؛ ولا يعرف عظمـة المخلوق إلا خالقـه ، وهو العالم بمُهمـة كل كائن خلقه ، لكنه أمـرنا ألاَّ نُقسِم إلاَّ به ؛ لأننا نجهل حقائق الأشياء مُكْتملةً .

وقد أقسم سبحـانه بكل شيء في الوجود ، إلا أنه لم يُقسِم أبداً بأيِّ إنسان إلا بمحمد ﷺ ؛ فقال هنا :

﴿لَعَمْرُكَ (٧٢)﴾ [الحجر]

بحياتك يا محمد إنهم في سكْرة يعمهون .

والسَّكْرة هي التـخديرة الـعقليـة التي تحـدث لمن يختلّ إدراكـهم بفعل عقيدة فاسـدة ، أو عادة شاذة ، أو بتناول مادة تثير الاضطراب في الوعي .

و ﴿يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾ [الحجر]

أي : يضطربون باختيارهم .

ويأتي العقاب ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ[1] مُشْرِقِينَ (٧٣)﴾

وسبق أنْ أخبـرنا سبحانه أنه سـيقطع دابرهم وهم مصـبحون ،

---

(١) الصيحة : العذاب ، وأصله من الصياح ، والصـيحة : الغارة إذا فوجيء الحيّ بها . [لسان العرب ـ مادة : صيح] . قال في القاموس القويم (٣٨٦/١) : « الصيحة : العذاب الذي يصحبه صوت شديد » .

وهنا يخبرنا أن الصيحة أخذتهم وهم مُشْرِقون ، ونحن نرى هذه الأيام بعضاً من الألعاب كلعبة « الكاراتيه » تصدر صيحة من اللاعب في مواجهة خَصْمه ليُزيد من رُعْبه .

كما نرى في تدريبات الصاعقة العسكرية ؛ نوعاً من الصرخات ، هدفها أنْ يُدخِل المقاتل الرُّعْب في قلب عدوه .

وكل ما يتطلب إرهاب الخَصْم يبدأ بصيحة تُفقِده توازنه الفكري ؛ ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ[1] الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ [القمر]

ومرّة يُسمّيها الحق سبحانه بالطاغية ؛ فيقول :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ[2] (٥) ﴾ [الحاقة]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[3] (٧٤) ﴾

---

(١) الهشيم المحتظر : أي كالحطب والخشب المحطّم في يد المحتظر صانع الحظيرة أو حامل الحطب فيها . [القاموس القويم ٢/٢٠٣] .

(٢) الطاغية : طغيانهم . أي : أهلكوا بطغيانهم . [لسان العرب ـ مادة : طغا] . قال قتادة : هي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم . وقال السدي : فأهلكوا بالطاغية يعني عاقر الناقة . [تفسير ابن كثير ٤/٤١٢] .

(٣) السجيل : الطين المتحجر . قال ابن كثير في تفسيره (٢/٤٥٤) : « هي بالفارسية حجارة من طين . قاله ابن عباس وغيره . وقال بعضهم : أي : من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين » .

وما دام عاليها قد صار أسفلها ، فهذا لَوْنٌ من الانتقام المُنظّم المُوجّه ؛ ولو لم يكن انتقاماً مُنظّماً ؛ لانقلب بعضُ ما فى تلك المدينة على الجانب الأيمن أو الأيسر .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يأتى لنا بصورة ما حدث ، ليدلّنا على قدرته على أنْ يفعلَ ما شاء كما يشاء . وأمطرهم الحق سبحانه بحجارة من سجيل ؛ كتلك التى أمطر بها مَنْ هاجموا الكعبة فى عام ميلاد رسول الله ﷺ .

وهى حجارة صُنعَتْ من طين لا يعلم كُنْهَه إلا الحق سبحانه ، والطين إذا تحجَّر سُمِّى « سجيلاً » .

والحق سبحانه هو القائل عن نفس هذا الموقف فى سورة الذاريات :

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣)﴾ [الذاريات]

وقد أرسل الحق سبحانه تلك الحجارة عليهم ليُبيدهم ، فلا يُبقِى منهم أحداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)﴾

وهكذا كان العذاب الذى أنزله الحق سبحانه بقوم لوط آية واضحة للمُتوسِّمين . والمُتوسِّم هو الذى يُدرك حقائق المَسْتور بمكْشُوف المظهور . ويُقال « توسَّمْتُ فى فلان كذا » أى : أخذ من الظاهر حقيقة الباطن .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

أى : ساعةَ تراهم ترى أن الملامح تُوَضّح ما فى الأعماق من إيمان .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا[1] .. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن المُتَوسِّم[2] هو صاحب الفَراسة التى تكشف مكنون الأعماق . وها هو ﷺ يقول : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[3] .

وتحمل الذاكرة العربية حكاية الأعرابى الذى فقد جمله ، فذهب إلى قَيِّم الناحية - أى : عمدة المكان - وقال له : « ضاع جملى ، وأخشى أن يكون قد سرقه أحد » . وبينما هو يُحدِّث القيِّم جاء واحد ، وقال له : أجملك أعور ؟ أجاب صاحب الجمل : نعم ، وقال له : أجملك أبتَر ؟ أى : لا ذَيْل له ، أجاب صاحب الجمل : نعم .

---

(١) ألحف السائل فى سؤاله : ألحَّ وأكثر الإلحاح . أى : لا يلحون فى طلب الصدقات . [القاموس القويم ٢/١٩٠] .

(٢) قال ثعلب : « الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك . وأصل التوسم : التثبت والتفكر ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر . زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أدناس المعاصى ، وكدورة الأخلاق ، وفضول الدنيا » نقله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٦٦) .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٢٧) وقال : حديث غريب ، وفيه مصعب بن سلام . قال المناوى فى « فيض القدير » (١/١٤٢) : « أورده الذهبى فى الضعفاء . وقال ابن حبان : كثير الغلط فلا يحتج به » . والحديث عن أبي سعيد الخدرى .

فسأل الرجل سؤالاً ثالثاً : أجملك أشول ؟ أى : يعرج قليلاً عندما يسير ؛ فأجاب الرجل : نعم ، والله هو جَمَلِى .

وأراد قيِّم الحى أن يعلم كيف عرف الرجل الذى حضر كل هذه العلامات التى فى الجمل ، فسأله : وما أدراك بكل تلك العلامات ؟

قال الرجل : لقد رأيتُه فى الطريق ، وعرفتُ أنه أعورُ ، ذلك أنه كان يأكل العُشْب الجاف من جهة ، ولا يلتفت إلى العُشْب الأخضر فى الجهة الأخرى ، ولو كان يرى بعينيه الاثنتين لرأى العُشْب الأخضر .

وعرفت أنه أبتر مقطوع الذَّيْل نتيجة أن بَعْره لم يتبعثر مثل غيره من الجمال التى لها ذَيْل غير مقطوع .

وعرفت أنه أشول ؛ لأن أثر ساقه اليمنى أكثر عُمْقاً فى الأرض من أثر ساقه اليسرى . وهكذا شرحت الذاكرة العربية معنى كلمة « المتوسم » .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مكان مدينة قوم لوط ، فيقول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

أى : أنها على طريق ثابت تمرُّون عليه إنْ ذهبتُم ناحية هذا المكان ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات]

فهذه المدينة إذنْ فى طريق ثابت ؛ لن تُضيِّعه عوامل التَّعْرية أو الأغيار ، ولن تُضيِّعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه له أن

يكون مُحْكَمَ التكوين ومُحكمَ التثبيت . وهو ما يُسمَّى « سدوم » .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وقد قال من قبل :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر]

فكأن من مسئوليات المؤمن أنْ يتفحَّص فى أدبار الأشياء ، وأنْ يتعرَّفَ على الأشياء بسيماها ، وأن يمتلكَ فراسة الإيمان التى قال عنها ﷺ : « اتقوا فراسةَ المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » .

وهكذا يُنهِى الحق سبحانه هنا قصة قوم لوط ؛ وما وقع عليهم من عذاب يجب أنْ يتعظَ به المؤمنون ؛ فقد نالوا جزاءَ ما فعلوا من فاحشة .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك نَقْلة أخرى ؛ إلى أهل مَدْين ، وهم قوم شُعَيب . وهم أصحاب الأيكة ، يقول سبحانه :

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

و «الأيْك » هو الشجر المُلْتف الكثير الأغصان . ونعلم أن شعيباً ـ عليه السلام ـ قد بُعث لأهل مدين وأصحاب الأيكة ، وهى مكان قريب من مدين ، وكان أهل مدين[1] قد ظلموا أنفسهم بالشرك .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٣١/٢) : « مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز » وقال أيضاً (٤٥٥/٢) : « هم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان » .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن أصحاب الأيكة :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [الشعراء]

وهكذا نعلم أن شعيباً قد بُعث لأمتين مُتجاورتين[1] .

ويقول سبحانه عن هاتين الأمتين :

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) ﴾

ويُقال : إن ما كان يفصل بين مدين وأصحاب الأيكة هو هذا الشجر المُلْتف الكثيف القريب من البحر . ولذلك نجد هنا الدليل على أن شعيباً عليه السلام قد بُعث إلى أمتين هو قوله الحق :

﴿ وَإِنَّهُمَا .. (٧٩) ﴾ [الحجر]

وقد انتقم الله من الأمتين الظالمتين ؛ مَدْين وأصحاب الأيكة .

ويقول الحق سبحانه :

(١) مضمون كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ أن مدين وأصحاب الايكة هما أمتان مختلفتان بُعث إليهما شعيب عليه السلام ، ويدل لهذا حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٩١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان ، بعث الله إليهما شعيباً » ، وعزاه لابن مردويه وابن عساكر . ولذلك فقد أرجع الشيخ الضمير فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) ﴾ [الحجر] إلى هاتين الأمتين . أما القرطبى وابن كثير فقد عادا بالضمير إلى قوم لوط ، وقوم مدين على اعتبار أن أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة . راجع القرطبى (٥/٣٧٦٨) وابن كثير (٢/٥٥٦) .

﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر]

والإمام هو ما يُؤتَم به فى الرأى والفتيا ؛ أو فى الحركات والسَّكنات ؛ أو : فى الطريق المُوصل إلى الغايات ، ويُسمَّى « إمام » لأنه يدلُّ على الأماكن أو الغايات التى نريد أن نصل إليها ، ذلك أنه يعلم كل جزئية من هذا الطريق .

وفيما يبدو أن أصحاب الأيْكة قد تَمادَوْا فى الظُّلْم والكفر[1] ، وإذا كان سبحانه قد أخذ أهل مَدْين بالصيحة والرجفة ؛ فقد أخذ أصحاب الأيكة بأن سلط عليهم الحَرَّ سبعة أيام لا يُظِلهم منه ظلٌّ ؛ ثم أرسل سحابة وتمنَّوْا أن تُمطر ، وأمطرتْ ناراً فأكلتهم ، كما قالت كتب الأثر[2] .

وهذا هو العذاب الذى قال فيه الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء]

وهكذا تكون تلك العِبَر بمثابة الإمام الذى يقود إلى التبصُّر بعواقب الظلم والشرك .

وينقلنا الحق سبحانه إلى خبر قوم آخرين ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وأصحاب الحِجْر هم قوم صالح ، وكانت المنطقة التى يقيمون فيها

(١) كان ظلم قوم شعيب بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . [تفسير ابن كثير ٢/٥٥٦] .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٩٢) من قول قتادة . وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

كلها من الحجارة ؛ ولا يزال مُقَامهم معروفاً فى المسافة بين خيبر وتبوك . وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[1] آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ[2] لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء]

وهم قد كذَّبوا نبيهم « صالح » وكان تكذيبهم له يتضمن تكذيب كل الرسل ؛ ذلك أن الرسل يتواردون على وحدانية الله ، ويتفقون فى الأحكام العامة الشاملة ، ولا يختلف الأنبياء إلا فى الجزئيات المناسبة لكل بيئة من البيئات التى يعيشون فيها .

فبيئة ؛ تعبد الأصنام ، فيُثْبِت لهم نبيُّهم أن الأصنام لا تستحق أن تُعبد .

وبيئة أخرى : تُطفِّف الكيْل والميزان ؛ فيأتى رسولهم بما ينهاهم عن ذلك .

وبيئة ثالثة : ترتكب الفواحش فيُحذِّرهم نبيهم من تلك الفواحش .

وهكذا اختلف الرسل فى الجزئيات المناسبة لكل بيئة ؛ لكنهم لم يختلفوا فى المنهج الكُلِّىّ الخاص بالتوحيد والمنهج ، وقد قال الحق سبحانه عن قوم صالح أنهم كذَّبوا المُرْسلين ؛ بمعنى أنهم كذَّبوا صالحاً فيما جاء به من دعوة التوحيد التى جاء بها كل الرسل .

---

(١) الريع : الجبل أو ما يشبهه من المبانى المرتفعة أو المكان المرتفع . [القاموس القويم ١/٢٨٢] .

(٢) المصانع : أبنية عالية وقصور متينة تحسنون صنعها راجين أن تخلدوا فيها ولستم بخالدين . [القاموس القويم ١/٣٨٤] .

ويقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك :

﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

وهنا يُوجِز الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ما أرسل به نبيهم صالح من آيات تدعوهم إلى التوحيد بالله ، وصدْق بلاغ صالح عليه السلام الذى تمثّل فى الناقة ، التى حذَّرهم صالح أنْ يقربوها بسوء كَيْلا يأخذهم العذاب الأليم[1] .

لكنهم كذَّبوا وأعرضوا عنه ، ولم يلتفتوا إلى الآيات التى خلقها الحق سبحانه فى الكون من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، واختلاف الألْسُن والألوان بين البشر .

ونعلم أن الآيات تأتى دائماً بمعنى المُعْجزات الدَّالة على صدْق الرسول ، أو : آيات الكون ، أو : آيات المنهج المُبلّغ عن الله ، تكونَ آية الرسول من هؤلاء من نوع ما نبَغ فيه القوم المُرْسَل إليهم ؛ لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها .

وعادةً ما تثير هذه الآية خاصيَّة التحدِّى الموجودة فى الإنسان ، ولكن أحداً من قوم الرسل ـ أىّ رسول ـ لا يُفلِح فى أن يأتى بمثل آية الرسول المرسل إليهم .

ويقول الحق سبحانه عن قوم صالح :

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الحجر]

(١) قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف] .

أى : تكبَّروا وأعرضوا عن المنهج الذى جاءهم به صالح ، والإعراض هو أنْ تُعطى الشىء عَرْضك بأن تبتعدَ عنه ولا تُقبل عليه ، ولو أنك أقبلتَ عليه لوجدتَ فيه الخير لك .

وأنت حين تُقبل على آيات الله ستجد أنها تدعوك للتفكُّر ، فتؤمن أن لها خالقاً فتلتزم بتعاليم المنهج الذى جاء به الرسول .

وأنت حين تُفكّر فى الحكمة من الطاعة ستجد أنها تُريحك من قلق الاعتماد على أحد غير خالقك ، لكن لو أخذتَ المسائل بسطحية ؛ فلن تنتهى إلى الإيمان .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وفى هذا تكليفٌ للمؤمن - كُل مؤمن - أن يُمعِنَ النظر فى آيات الكون لعلَّه يستنبط منها ما يفيد غيره .

وأنت لو نظرتَ إلى كل المُخْترعات التى فى الكون لوجدتَّها نتيجة للإقبال عليها من قِبَل عالم أراد أنْ يكتشفَ فيها ما يُريح غيره به .

والمثل فى اكتشاف قُوّة البخار التى بدأ بها عَصْر من الطاقة واختراع المُعدات التى تعمل بتلك الطاقة ، وحرّك بها القطار والسفينة ؛ مثلما سبقها إنسان آخر واخترع العجلة ليُسهِّل على البشر حَمْل الأثقال .

وإذا كان هذا فى أمر الكَوْنيَّات ؛ فأنت أيضاً إذا تأملتَ آيات